الفصل الخامس

«مفتاح» العالم الثالث

كان موسم الحج لعام ١٣٧٣ هجرية (١٩٥٤ ميلادية) مختلفا بعض الشيء لبعض الحجيج، إذ عمد مسلمان ترعاهما وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى جعل بقاع الحج بمكة ساحة للحرب الباردة. وكان هذان المسلمان المتحمسان:

"روسى نصار"، و"حامد راشد" – المولودان فى الاتحاد السوفييتى – قد اتبعا سبيلا أضحى مألوفا ... إذ تم القبض عليهما من قبل الألمان، ليتعاونا مع النازى، ويتم تجنيدهما، فى النهاية بواسطة الاستخبارات المركزية. أما هدفهما فى موسم الحج هذا، فكان "الحجيج السوفييت" – الذين زعما أنهم ضالعون فى ترويج الدعايات. وتحت رعاية أمكوموليب، قام "نصار" و"راشد" بالسفر إلى "جدة" حيث عمدا إلى الادعاء بأنهما تركيان، ليركبا "حافلة" كانت تحمل واحدا وعشرين حاجا سوفييتيا إلى مكة ... حيث شرعا فى عملهما بالحديث إلى المسلمين السوفييت ومحاولة بذر بذور الشك حول موطنهم الأم. وحين أخفقا فى ذلك المنحى، قاما بملاحقة ضحاياهم فى مكة وعمدا إلى مضايقتهم.

هذا، وقد قام كل من "نصار" و"راشد" بتجنيد بعض المسلمين المحليين لمساعدتهما فى مهمتهما. فقاموا بتثبيت ملصقات معادية السوفييت على الجدران،

كذا فقد قاموا بمضايقة الحجيج السوفييت وإزعاجهم كثيرا، حتى أنهم قد ألقوا - ذات مرة - حبات من البندورة على هؤلاء الحجيج فى شوارع مكة. ولعله بسبب جهود الأمريكيين، خذل الملك السعودى، آنذاك، سعود بن عبد العزيز السوفييت رافضا طلبهم الملتمس أن تُسمع أصواتهم. وقد سنحت فرصة أمام السوفييت للتحدث عن وضعية الإسلام فى الاتحاد السوفييتى فى تجمع للحجيج. بيد أنهم ما إن شرعوا فى الحديث فى رحاب الحرم المكى، حتى هاجمهم "حامد راشد" حيث سألهم - متعجبا - أنى ارتضوا لأنفسهم التغاضى عن اضطهاد الاتحاد السوفييتى للمسلمين ... فأجابه أحد السوفييت بأن أولئك الواقع عليهم الاضطهاد قد نالوا جزاءهم من لدن الله. كان هذا على مقربة من "الكعبة"، حيث انتقد "راشد" ذلك السوفييتى نقدا لاذعا قائلا: "ألا تستحى أن تقول أمثال تلك الأكاذيب فى حضرة "الكعبة المشرفة"، وأنت هرم مسن باتت أيامك فى الحياة معدودة، فصرت

قاب قوسين أو أدنى من أن توارى التراب ... أين حمرة الخجل؟! ... ألا تخشى المثول بين يدى خالقك فيسألك عما اجترحه لسانك؟!".

وقد صورت تلك "الغزوة" التى كان بطلاها "روسى نصار"، و"حامد راشد" - فى الغرب على أنها جزء من انتفاضة فطرية تلقائية ... انتفاضة امتعاض وصرخة غضب فى وجه الاتحاد السوفييتى عمد إليها مسلمان من اللاجئين احتجاجا عليه. وقد وردت تلك الرواية فى مجلة Time الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٩/٢٧، وكذلك فى صحيفة "نيويورك تايمز" الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٩/١٥ . هذا، وقد كانت رحلتهما الزائفة للحج جزءاً من خطة أمريكية عدوانية لمناهضة الاتحاد السوفييتى فى ساحة حرب جديدة ... "العالم الثالث".

بحلول منتصف الخمسينيات، بلغت الحرب الباردة نفقا مسدودا فى أوروبا. فكما أظهرت انتفاضة ألمانيا الشرقية (١٩٥٣)[٤٣]، وكذا انتفاضة هنغاريا (١٩٥٦)[٤٤] ... فإن الاتحاد السوفييتى كان عازماً على مواصلة السيطرة على البلدان السائرة فى فلكه. أما الغرب، فلم يكن بمستطاعه إلا أن ينتفض ويتمرد. والطرفان قد حاولا سياسات صارمة، إذ ضيق السوفييت الخناق على "برلين الغربية" عن طريق قطع الطرق البرية، فيما شجعت الولايات المتحدة "الانتفاضة الهنغارية". هذا، وقد ظلت أوروبا - والتى ستشهد أراضيها انهيار الشيوعية فى عام ١٩٨٩ - ساحة للحرب الباردة. إلا أن عمليات "الحرب الباردة الحقيقية"، فيما بين منتصف الخمسينيات وأواخر الثمانينيات، قد جرت وقائعها فى ساحات أخرى خلاف أوروبا.

فحقيقة الأمر، كان "العالم الثالث" - على التحقيق - أكثر ساحات "الحرب الباردة" من حيث الأهمية ... إذ خيضت على أراضيه - لا فى أوروبا - حروب

دموية شرسة. كذا، فقد كان مضمارا أطلق زبانية البروباغندا -على كلا الطرفين- أبواقهم ورسائلهم الموجهة خلاله. وفيما تابع السوفييت وحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية إرسال "برامجهم" عبر فضاءات بعضهم البعض، إلا أن "العالم الثالث" كان الامتداد الوحيد الذى صار بمقدور القائمين على "البروباغندا" اقتناص فرصة هنا وأخرى هناك ... فى صراع "إعلامى" كان سجالا فيما بينهم.

أما ذلك الامتداد من رقعة المعمورة، فقد أطلق عليه أسماء عدة ... فهو تارة "العالم النامى"، وتارة "العالم الثالث"، وأخرى "الجنوب" - إذ تقع الغالبية العظمى من بلدانه فى نصف الكرة الجنوبى. على أن البعض - لاحقا - سيعتبر لفظة "العالم الثالث" منطوية على مسحة ازدرائية، وكأنما قد حلت بلدانه "ثالثة" فى سباق التنافس الكوكبى. بيد أن المعنى الأصلى للفظة هو معنى أكثر بساطة وأجدى أثرا. إذ انصرف المعنى الأصلى، حين نحت الفرنسى "ألفريد سوفيه"[٤٥] اللفظة، إلى تمييز قطاعات معينة من العالم عن تلك المنخرطة مباشرة فى الصراع المنقسم إلى "عالم أول" و"عالم ثان"، حيث تمثل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها هذا "العالم الأول"، فيما يمثل الاتحاد السوفييتى وكتلته الشرقية ذاك "العالم الثانى". وقد ذهب "سوفيه" إلى تعريف "العالم الثالث" بأنه رقعة كبيرة من الأرض تمتد لتشمل معظم بلدان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. أما القاسم المشترك الذى ينتظم بلدان تلك القارات فكان أن معظمها، باستثناء بلدان أمريكا اللاتينية، كان حديث عهد بالتحرر من ربقة الحكم الكولونيالى، وذلك فى خمسينيات القرن العشرين ... كذا، فإن معظمها - بما فيها بلدان أمريكا اللاتينية - كان يخطو خطوات أولى فى مضمار التصنيع، آنذاك. إذ كانت حفنة من القوى الأوروبية - وبخاصة بريطانيا وفرنسا - تبسط هيمنتها على تلك البلدان، وتتحكم فى مواردها ومقدرات شعوبها ... إلا أنه - ومع انقضاء الحرب الكونية الثانية - كانت تلك الإمبراطوريات الأوروبية القديمة

تتداعى متهاوية، فيما كانت الأقاليم التى عانت احتلال تلكم الإمبراطوريات تنال استقلالها وحرياتها. وتباعا، كان البلد تلو الآخر ينضم إلى قائمة البلدان المستقلة لينخرط فى منظومة الأمم القائمة.

لقد كانت "القوى العظمى" تتوق إلى جذب بلدان "العالم الثالث" إلى صفها كحلفاء. فالغرب والاتحاد السوفييتى، كلاهما، قد رغبا فى شركاء تجاريين ومصادر للخامات اللازمة لتسيير عجلة الإنتاج بهما. وعلى الرغم من أن معظم بلدان "العالم الثالث" كانت فقيرة، آنذاك، إلا أن أهميتها الاستراتيجية لم تكن موضع إهمال أو تغافل من قبل تلك "القوى العظمى" ... ويمكن للمرء، فى هذا المقام، أن يفكر فيما كان سيبدو عليه "العالم المعاصر"، لو كان قيض لمنارات اقتصادية سامقة ككوريا الجنوبية أو تايوان أو سنغافورة أو ماليزيا أو تايلاند أن تكون بلدانا شيوعية، لا أن تكون مرتكزات لنظام التجارة العالمى ودعامات له. وحتى البلدان التى كانت ما تزال فقيرة، كان يمكنها أن "تصوت" فى الأمم المتحدة. إن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى، فضلا عن بريطانيا والصين وفرنسا، تملك جميعها حق الاعتراض على القرارات (الفيتو) فى مجلس الأمن ... إلا أن القوتين العظميين – الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى – كانتا بحاجة إلى "أصوات" لتمرير قرارات أممية بعينها. وعلى الرغم من أن كثيرا من الأمريكيين – اليوم – ينظرون إلى "الأمم المتحدة" نظرة دونية قوامها الاستخفاف، إلا أن تلك المنظمة العالمية كانت خلال السنوات الأولى من "الحرب الباردة" أوفر شبابا وأدنى إلى المثالية عنها فى وقتنا الحاضر. وبغض الطرف عما إذا كانت ذات فاعلية أم لا تعدو أن تكون منظمة عقيمة، إلا أنها كانت المنتدى العالمى الأوحد وساحة التنافس السجالى ما بين واشنطن وموسكو.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أعيقت فى تلك "الحرب الباردة" ... إذ

أبدت، خلال الحرب الكونية الثانية، ازدراء واحتقارا للكولونيالية الأوروبية. وذهب الكثير من المفكرين الأمريكيين إلى أن المستعمرات الأوروبية سيكون بوسعها نيل استقلالها وحرياتها في أعقاب انقضاء الحرب، وأن الولايات المتحدة الأمريكية ستفيد من "الوضع الجديد" ... فالولايات المتحدة - بالأساس - قد أنشأها متمردون ثاروا في وجه الكولونيالية البريطانية ... إذا، من ذا الذي سيتعاطف بأكثر من الأمريكيين مع تلك البلدان التي ستتحرر عما قريب؟!

إلا أن ما حدث، بالفعل، كان أمرا مختلفا أيما اختلاف. فلاستشعارها القلق من أن تتحول البلدان المستقلة حديثا بلدانا شيوعية، عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تقديم يد العون إلى القوى الكولونيالية. ففي أعقاب هزيمة الفرنسيين في معركة "ديان بيان فو" Dien Bien Phu في فيتنام، أرسلت الولايات المتحدة سلاحا إلى فرنسا لإعادة بناء جيشها الكولونيالي. أما في الشرق الأوسط، فقد حلت شركات النفط الأمريكية، من أمثال شركة "أرامكو" محل القوى الكولونيالية القديمة التي غادرت الإقليم. وبتحريض النقاد بالاتحاد السوفييتي، ذهب العديد من البلدان حديثة العهد بالاستقلال إلى نعت الولايات المتحدة "بالمستعمر الجديد".

هذا، وقد خلصت "القوتان العظميان" إلى تدعيم موقفيهما عن طريق توظيف "الإسلام" كسلاح مشهر وسيف مصلت. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، كان اهتمام "الحرب الباردة" بالإسلام سابقاً لاعتلاء "أيزنهاور" سدة الرئاسة. فأثناء ولاية الرئيس الأمريكي "هاري ترومان"، كانت الاستخبارات الأمريكية - وفقا لما تدوول - تسعى للبحث عن شخصية "كاريزماتية" تستطيع حشد المسلمين وقيادتهم في حملة مناهضة للشيوعية. لذا، فقد وضعت "لجنة الاستراتيجية السيكولوجية" - التي أنشأها "ترومان" - برنامجا للشرق الأوسط شُرع في تنفيذه اعتبارا من شباط/ فبراير ١٩٥٣ بعيد تنصيب "أيزنهاور" رئيسا للبلاد. وفي تقرير للجنة ورد

المقطع التالي: " لا يمكن تناول العقلية العربية التقليدية دون الأخذ بعين الاعتبار التأثير الطاغي للدين الإسلامي في نمط التفكير العربي". هذا، وقد ذهب التقرير ذاته إلى التحذير من أن الإسلام، وعلى خلاف نظرة الغرب النمطية إليه، ليس عائقا طبيعيا بوجه الشيوعية. فالكثير من الإصلاحيين الذين أمسكوا بزمام السلطة في بلاد العرب قد أفسحوا مجالا للاقتصاد لتكون له الأولوية متقدما على أمور "الدين" هناك ... الأمر الذي أدى إلى إضعاف القوة المعتقدية (الإيمانية)، وما لها من دور، بما جعل الإقليم عرضة للتأثر برياح الشيوعية. وهنا نشهد حضورا طاغيا لغرهارد فون منده وجماعته ضمن التحليلات الأمريكية الباكرة بشأن الزخم الإسلامي ودوره المستقبلي. ففي شباط/ فبراير ١٩٥١، تلقت وكالة الاستخبارات المركزية تقريرا من مصدر للمعلومات بإحدى كبريات الجامعات الأمريكية مفاده قيام "فون منده" بحشد أعداد من المسلمين من ذوي الشأن لتأسيس مستجمع للأفكار think tank يتناسب ومشاربهم. كذا، فإن جهوده نحو إعادة تأسيس الأوستمنستريوم وفريق العمل به لم تكن خافية. ولعل التقرير المذكور ذا الصفحات الثلاث لدليل على شروع الأمريكيين في التفكير في كيفية توظيف "الإسلام" لمآربهم ومراميهم.

هذا، وقد عمدت الإدارة الأمريكية إبان ولاية "أيزنهاور" إلى تدعيم تلك الجهود ودفعها قدما ... إذ كانت ترى أن إدارة "ترومان" لم تكن قوية بما يكفي، كذا فلم تكن جهودها موجهة لتلك الأغراض توجيها كاملا. فعلى حين كانت "لجنة الاستراتيجية السيكولوجية" تتبنى البرنامج الجديد بشأن الشرق الأوسط، وذلك في بواكير عام ١٩٥٣، كان "إدوارد ليللي - Edward P. Lilly أحد أبرز استراتيجيي الحرب السيكولوجية في إدارة "أيزنهاور" ... قد أصدر مذكرة حملت اسم "العامل الديني" The Religious Factor، والتي دعت الولايات المتحدة إلى توظيف "تفوقها" الروحاني، واستخدام ورقة "الدين" على نحو أكثر سفورا. وقد صور "ليللي" في

مذكرته حركة الإحياء الدينى الكبيرة الدائرة، آنذاك، فى ربوع العالم الإسلامى، حيث ذهب إلى القول بأن المفكرين المسلمين - على مدار عدة عقود خلت - كانوا يسعون إلى تحديد كيفية توظيف "الإسلام" لإنقاذ بلدانهم من براثن الكولونيالية والتبعية للغرب. كذا، فقد أضاف "ليللى" أن جماعات، كالإخوان المسلمين"، قد تعهدت بتحقيق "الخلاص الوطنى" بالاستمساك بالقرآن والعض عليه بالنواجذ ... حيث قام بتشبيه جماعة "الإخوان المسلمين" بحركة "البعث الويزليانى الميثودى" فى بريطانيا القرن الثامن عشر. وفى عام ١٩٥٣، طلب "ليللى" إلى فريقه بحث إمكانية مد يد العون إلى المملكة العربية السعودية أثناء موسم الحج بأراضيها، إذ نظرا لبعض المشاكل اللوجيستية، لم يتمكن الآلاف من المسلمين فى ذلك الموسم (١٣٧٢ هجرية) من الوصول إلى مكة ... فكان السؤال: هل يمكن لسلاح الجو الأمريكى - فى قابل الأيام - أن ينقلهم إلى هناك؟ ... سؤال طرحه مستشار "إدوارد ليللى" جانبا وكتب يقول: "بينما تظهر الرغبة فى العمل على وحدة العالم المسيحى والإسلام لضمان حرية العقيدة، ... إلخ، واضحة جلية، إلا أننى أرى أن مشروعا كهذا لن يجدى كثيراً ... إذ سيتم النظر إليه على أنه محاولة مصطنعة تم إقحامها من قبل "الكفار" لتنظيم الشأن الإسلامى ... محاولة أخال أنها لن تؤتى ثمارها، بل سيخيب مسعاها ... وينظر إليها على أنها حملة سيكولوجية فجة".

إلا أن المسئولين قد ظلوا مهووسين بمفهوم توظيف "الدين" سلاحا. وفى عام ١٩٥٤، تم إرسال مذكرة "العامل الدينى" إلى مجلس الأمن القومى الأمريكى الذى كان قد مرر وثيقة بالغة الأهمية، تلك المعروفة بوثيقة ٢/١٦٢ ... والداعية إلى الثأر من الاتحاد السوفييتى على أوسع نطاق ممكن[٤٦]. وعادة ما ينظر إلى تلك الوثيقة على ضوء ما انطوت عليه من إمكانية خوض "حرب نووية"، وتسويغها لتقويض أركان العدو وتدميره. إلا أنها قد دعت، أيضا، إلى "حشد الموارد الروحانية

والأخلاقيات واستنفارها بما يكفي لمواجهة التهديد السوفييتي".

أما وزارة الخارجية الأمريكية ووكالة الاستخبارات المركزية، وكذا الوكالة الأمريكية للمعلومات – فقد استنفروا جميعا لاتخاذ خطوات في هذا الصدد. ولكن أنى لهم المضي قدما؟! فالاتحاد السوفييتي به أكثر من ثلاثين مليون مسلم ... وعلى امتداد سنوات عديدة، عمد الاتحاد السوفييتي إلى استئصال "الدين" عن طريق إغلاق المساجد واضطهاد أولئك الذين يمارسون الشعائر الدينية، وكان هذا أحد أسباب سهولة قيام الألمان بتجنيد المسلمين في الجيش الألماني وأسراب الدفاع أثناء الحرب الكونية الثانية. إلا أنه وبحلول الخمسينيات، لجأ السوفييت إلى انتهاج سياسة مغايرة، ظاهريا على أدنى تقدير ... إذ أعيد فتح المساجد وتدريب الدعاة والأئمة. ووفقا لما أدركه "روسي نصار"، حين قام بزيارة المملكة العربية السعودية، فإن المسئولين السوفييت قد كانوا يرسلون المسلمين لتأدية فريضة الحج للتودد إلى العالم الإسلامي والعمل على كسبه إلى صف الاتحاد السوفييتي. ونظرا لكونه موطنا لمجتمعات مسلمة قديمة ذات شأن في آسيا الوسطى، أراد الاتحاد السوفييتي أن يعطي انطباعا بأن مسلميه يعاملون معاملة حسنة، ويتمتعون بالحريات الدينية.

أما الولايات المتحدة الأمريكية فلا تملك معيناً كهذا من المسلمين ... إذ انحصرت كثافة عددية كتلك من المسلمين في "أمة الإسلام"[٤٧] ... تلك الجماعة التي لم تكن على وفاق مع الحكومة الأمريكية، حيث لم يجد أعضاؤها "أرضية مشتركة" مع إدارة "أيزنهاور" أو مسئولي الاستخبارات الأمريكية. وحتى لو كان تحالف ما قد تم التوصل إليه، فإن التعامل مع "أمة الإسلام" قد كان سيأتي بنتائج عكسية ... فكثير من عامة المسلمين يجفل مما يعدونه "تعاليم هرطوقية" – فقد زعمت "أمة الإسلام"، على سبيل المثال، أن الله سبحانه قد تجلى بذاته العلية جهرة، عام

١٩٣٠، إلى مؤسس تلك الجماعة). إذا ... كان على الولايات المتحدة أن تبحث فى مكان آخر.

لعقود طوال، ظلت "باندونغ" تشتهر بكونها منتجعا إندونيسيا ... ملجأ جبلى ذو طبيعة باردة بنى فيه المستعمرون الهولنديون من الملاك الزراعيين نوادى وفنادق فاخرة هربا من حرارة إندونيسيا المدارية. بيد أن الأمر قد تغير بالكلية، إذ أضحت "باندونغ" فى أعقاب مؤتمر استغرق أسبوعا واحدا (١٨ - ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٥٥) رمزا للدور المحورى للعالم الثالث فى "الحرب الباردة" الكونية.

أما المؤتمر، فقد عقد فيما كان يعرف بنادى "الكونكورديا" ... وهو النادى الأكثر تفردا، ذلك الذى بناه "المستعمر الهولندى" فى تلك المستعمرة الغنية بالموارد. وينتمى نادى "الكونكورديا" - الذى يقع فى وسط المدينة - إلى الطراز المعمارى الشهير "الآرديكو" ... Art Deco تزينه أرضية من الرخام الإيطالى الفاخر، وبه "بار" نحتت عناصره الداخلية من خشب "السنديان". وفضلا عن ثريات بديعة تتلألأ كريستالاتها، فالنادى يحوى مطاعم وقاعات للاجتماعات ورواقا متسعا اعتاد مدراء المستعمرة الأوروبيون الاجتماع فيه للتسامر والتباحث حول "البيزنس". أما اليوم ... فقد آل مبنى النادى وحدائقه الممتدة على مساحة فدانين بأكملهما إلى أهل البلاد.

أما المؤتمر الأفرو- أسيوى، والذى بات يعرف بمؤتمر "باندونغ"، فقد أتاح الفرصة لقادة "العالم الثالث" للتعرف إلى بعضهم البعض، وإيجاد أرضية مشتركة ومساحات للتواصل فيما بينهم. والمؤتمر قد نظمته إندونيسيا ورعته - بالتعاون مع العديد من أبرز البلدان التى نالت استقلالها حديثا، آنذاك، من أمثال الهند وسيلان ومصر وبورما وباكستان ... فكان مهدا لحركة عدم الانحياز - وهى مجموعة من

بلدان لا تريد أن يتم إدراجها لا فى المعسكر الشرقى ولا فى المعسكر الغربى. أما واشنطن فقد رأت "الحركة" على نحو مغاير: مجموعة من بلدان قد راقت لها "الشيوعية" ... بلدان يمكن أن تكون أداة طيعة فى يد موسكو. هذا، وقد بعثت الصين (والتى كانت ما تزال - حينها - حليفا سوفييتيا وثيقا) برئيس وزرائها الدمث اللطيف، شواين لاى، ممثلا لها. وفى واشنطن، تم النظر إلى التطورات المتلاحقة فى مؤتمر "باندونغ" على كونها حربا سرمدية لا نهاية لها، فضلا عن كون بعض البلدان الأكثر اكتظاظا بالسكان قد باتت مهددة.

هذا، وقد عمد مجلس الأمن القومى الأمريكى إلى التحرك ... حتى قبل أن يبدأ المؤتمر بالفعل. ففى كانون الثانى/ يناير ١٩٥٥، أنشأ مجلس تنسيق العمليات التابع للمجلس "مجموعة عمل باندونغ"، والتى تكونت من وكالة الاستخبارات المركزية، والوكالة الأمريكية للمعلومات، ووزارة الخارجية الأمريكية، وهيئات أخرى ... "بغرض وضع البلدان السائرة فى ركاب المعسكر الشيوعى، والمجتمعة فى "باندونغ" فى موقف دفاعى، وكأنما قد اقترفت ما يستوجب أن تقوم بتبرئة ساحتها منه. وعقب ذلك بأيام قلائل، وتحديدا فى الحادى والعشرين من الشهر ذاته، أصدر مجلس تنسيق العمليات تقريرا ذهب إلى نعت مؤتمر "باندونغ" بألذع العبارات وأحدها، ليقول: "إن المؤتمر الأفرو-آسيوى، ومشاركة الصين الشيوعية فيه، سيعطى ملمحاً غير حقيقى عن الشيوعية العالمية بتصويرها كنصير لحركات التحرر الوطنى والحركات المناهضة للكولونيالية. وما لم يتم فضح تلك المخططات لتكون وبالا عليها، فسينجح "الشيوعيون" فى المضى قدما نحو هدفهم الرامى إلى الهيمنة العالمية".

وعلى المستوى الرسمى، بعث "أيزنهاور" بتمنياته إلى الوفود المشاركة فى مؤتمر "باندونغ" بأن تكلل جهودها بالتوفيق. إلا أن المشهد كان مغايرا خلف "الكواليس"

... فالولايات المتحدة الأمريكية، والتى لم يتم توجيه الدعوة إليها لحضور المؤتمر قد جندت "وكلاءها" Proxies لبث دعاية مستترة. أما الاتحاد السوفييتى فكانت نقطة ضعفه: الإسلام. ووفقا لأحد مسئولى إدارة الرئيس "أيزنهاور"، فقد استخدمت الولايات المتحدة تلك النقطة لإجراء بعض "المناورات الماكيافيللية" فى "باندونغ". واستطرد المسئول قائلا: "إننى أسائل نفسى عما إذا كان بعض الأصدقاء فى باندونغ لم يدرجوا بملفاتهم قائمة بالممارسات الكولونيالية لروسيا فى إدارتها للشعوب المسلمة فى تلك البلدان المزعومة كأوزبكستان وتركستان. وأجدنى مدفوعا إلى إدراك وجود "قصص مخيفة" عن عقاب "الروس" لتلك الشعوب "غير المتعاونة" فى أثناء الحرب الكونية الثانية وفى أعقابها مباشرة ... عقاب تمثل فى تهجير الآلاف من منازلهم إلى أراض جديدة، وإبادتهم جماعيا وتصفيتهم بالجملة".

وبالفعل ... فقد حيكت تلك "القصص المخيفة". ومرة أخرى، كان "روسى نصار" هو من أنقذ الموقف. فبعد مرور عام على قيامه بالاضطلاع بدور "الحاج"!!، عمد "نصار" إلى تغيير جلده ليصبح "صحافيا" – إذ صودق على التحاقه بصحيفة "النيويورك هيرالد تريبيون" فى "باندونغ". وفى أثناء انعقاد المؤتمر، أبرقت السفارة الأمريكية فى العاصمة الإندونيسية "جاكارتا" لتخبر بأن "نصار" يعمل لدى الصحيفة "هذا الأسبوع"!! – بما يشير إلى أن الوظيفة، أو بالأحرى "المهمة"، قصيرة للغاية، أو لعلها كانت "ستارا". كذا، فقد أشارت السفارة إلى أن "المهمة" تمثل "لجنة الوحدة القومية التركستانية" – وهى جماعة اللاجئين الأقوى تأثيرا فى تمثيل المسلمين السوفييت والتحدث باسمهم. فضلا عن ذلك، فقد كانت "مهمة" نصار ممولة من "غرهارد فون مندة"، حيث روقبت بواسطته مراقبة لصيقة ... تلك المهمة التى أدارها "ولى قيوم خان" ... أحد مرتزقة "فون مندة". هذا، وقد ذكر مسئول وزارة الخارجية الأمريكية فى طيات البرقية المذكورة أنه لا يهتم بأن يرسل "المادة" التى كان "نصار"

يقوم بتوزيعها فى مؤتمر "باندونغ" نظرا لافتراضه أن تكون واشنطن قد أطلعت عليها – بما يشير إلى علمها بمهمة "نصار"، إن لم يكن مراقبتها له.

ولم تنطل الخدعة على السوفييت ... إذ قامت الصحيفة السوفييتية "ترود" (العمل) بالهجوم على "روسى نصار" باتهامه بكونه عميلا أمريكيا تم إرساله من ألمانيا الغربية للمطالبة باستقلال تركستان ومهاجمة السياسة القومية السوفييتية، بما يتيح لممثلى الولايات المتحدة فى المؤتمر – أو بالأحرى عملائها – أساسا لإشاعة الافتراءات وفرصة لنسج "الفبركات".

أما "مسلمو ميونيخ"، فقد أدلوا دلاهم وضربوا بسهم هجومى. ففضلا عن هجوم "نصار" ... أقام "ولى قيوم خان" دعوى باسم "لجنة الوحدة القومية التركستانية"، والتى نعتها بأنها "قاطرة تحرير الشعوب التركستانية" التى خولها التركستانيون لتكون لسان حالهم والمتحدث باسمهم. أما الدعوى –والتى جاءت فى صفحات ثلاث – فقد أشارت إلى العديد من الحقائق الساطعة بشأن احتلال الروس/ السوفييت والصينيين لتركستان. وقد عمد الشيوعيون إلى تقسيم الإقليم إلى أشباه دول قومية فى محاولة منهم لتطبيق مبدأ "فرق تسد"، حيث ناشد "نصار" فى دعواه إنشاء لجنة للتحقيق بشأن افتقار الإقليم إلى "الحريات الدينية".

إلا أن دور "نصار" فى حرب الدعاية المسلمة كان، فى بعض الأحايين، غامضا خفيا[٤٨]. فرغما عن ظهوره الإعلامى خلال موسم الحج (١٣٧٣ هجرية – ١٩٥٤ ميلادية)، وكذلك خلال مؤتمر "باندونغ" ١٩٥٥ ... إلا أنه قد اختفى عن المشهد العام فى أعقاب ذلك ... وستمر سنون طوال إلى أن يظهر "روسى نصار" ثانية فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتى فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين كأحد حكماء الأوزبك الذين يحيون فى الولايات المتحدة الأمريكية، أو من يعرفون باسم Aksakal[٤٩]. وحين

أجريت حوارا معه فى العاشر من أيار/ مايو ٢٠٠٦ بولاية "فيرجينيا" الأمريكية، كان الرجل فى التاسعة والثمانين آنذاك ... إلا أنه كان نشيطا متيقظا ذكيا، حيث استدعى - بيسر - ذكريات وأحداثا جرت وقائعها منذ خمسة عقود خلت، إذ كانت ذاكرته الحادة تجول بين أماكن وأناس من الماضى البعيد.

إن "روسى نصار" - المولود فى عام ١٩١٦ بمدينة "نمنقان"، ثانى أكبر مدن أوزبكستان - قد كان له من الوحشية السوفييتية نصيب ... إذ تم ترحيل عائلته إلى "أوكرانيا" سعيا من السوفييت لاجتثاث "الطبقة المثقفة" واستئصالها من الإقليم. وحين اشتعلت شرارة الحرب الكونية الثانية، تهرب "نصار" من الخدمة العسكرية، حيث قام بالاختباء لدى إحدى العائلات الأوكرانية ... وعقب اجتياح الألمان للإقليم، علم "نصار" أن الزعيم التركستانى الكبير "مصطفى شوقاى بك أوغلو" كان يسعى إلى توحيد الشعوب "التركستانية" ويهفو إلى جمع شتاتها لإرساء حكومة فى المنفى. إلا أن "نصار" قد علم أن "شوقاى" قد انتدب لمعاينة أحوال سجناء أسرى الحرب التركستانيين فى كل من بولندا وأوكرانيا، وأنه قد أصابته الحمى فتوفى من أثرها عام ١٩٤١ ... ورغما عن ذلك، فقد التحق "نصار" بإحدى الوحدات التركستانية وحارب لمصلحة الألمان ... فأصيب مرتين. وقد تم إرسال "نصار" إلى مدرسة لتدريب القادة فى إقليم "اللورين" الألمانى (ويقع الإقليم حاليا ضمن الأراضى الفرنسية). هذا، وقد التحق "نصار"، بعد ذلك، بالقيادة العليا للجيش الألمانى حيث تمكن فى الأيام الأخيرة من الحرب من الفرار إلى النمسا ليصل "بافاريا" حيث أواه مزارع هناك لمدة شهرين إلى أن هدأت فورة الترحيل إلى الأوطان المنصوص عليها فى معاهدة "يالطا". أما فى عام ١٩٤٦، فقد عمل ممثلا "لكتلة الأمم المناهضة للشيوعية"، بيد أنه قد رفض عرضا تقدم به صديقه القديم "باى ميرزا هاييت" لترك القطاع الأمريكى من ألمانيا إلى القطاع البريطانى، والعمل

لصالح "لجنة الوحدة القومية التركستانية". وفى أوائل الخمسينيات، تم تجنيده من قبل "أرشيبالد روزفلت – الابن" – مسئول التجسس الأسطورى بوكالة الاستخبارات المركزية، وحفيد الرئيس الأمريكى "تيودور روزفلت" ... وذلك للعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية. وفى حوارنا، ألمحت إلى تعاونه – ولو على نحو غير مباشر – مع وكالة الاستخبارات المركزية، فانتفض مغاضبا ليقول إنه إنما كان منخرطا فى بعض "الدراسات الاستراتيجية" لحساب وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون)، ولم يعمل ألبتة فى البروباغندا "المغطاة". وحقيقة الأمر، كان "نصار" لا يستسيغ "أمكومليب" ... إذ أخبرنى أنه لا يحمل "لها" احتراما، فهى "سوفييتية الهوى" لا تعبأ بمصالح الأقليات نقيرا.

إن الكثير ممن تحدثت إليهم أثناء قيامى بالأعمال البحثية لإعداد هذا الكتاب ... يرون أنفسهم زعماء قوميين جاهدوا كيما تبقى شعلة "الاستقلال" متوقدة إبان الليالى الحوالك للحكم السوفييتى المقيت. أما "نصار" والذى أضحى – حينها – زعيما أوزبكيا ذا قدر جليل وحكيما مسموع الكلمة، فتبقى حقيقة أن يكون جانبا من جهوده قد كُرِس لخدمة "وطن" آخر وتحقيق مآرب ذلك "الوطن" ... غير متماشية مع ذلك القدر "الجليل". هذا، وقد أورد "نصار" أن أمكومليب قد سعت مرارا إلى تجنيده لصالحها ... إذ وعده "إسحاق دون ليفين"، أحد أعضاء مجلس الأمناء "بفيلا رحبة فى ميونيخ وعربة" إذا ما وافق على الانضمام. بيد أن "نصار" قد ذهب إلى أنه كان يزدرى أمكومليب ... ففى زيارة له إلى ميونيخ علم أن أوزبكيا – أمان بردى مراد – كان يعمل لدى "راديو الحرية". أما "بردى مراد"، والذى تعرف إليه "نصار" أثناء الحرب – فقد ذكر أنه لم يكن بمقدوره إذاعة ما يرغب بسبب توجهات أمكومليب الموالية للسوفييت. وهنا قام "نصار" بتقريع "بردى مراد" وتوبيخه صائحا: "أيها البلهاء!! بحق السماء ... لم تخدمون أمثال تلك المنظمات؟!"

أجل ... قد يكون "روسى نصار" قد ازدرى أمكومليب، إلا أن القرائن لتشير إلى أنه كان يعمل لحسابها. فالمقالة الواردة بصحيفة "نيويوك تايمز" بتاريخ ١٩٥٤/٩/١٥، وتلك الواردة بمجلة "Time" بتاريخ ١٩٥٤/٩/٢٧ بشأن رحلة "نصار" لتأدية فريضة الحج ... قد أوردتا أنه قد أرسل بواسطة أمكومليب (التى صورتها مجلة "Time" بأنها منظمة خاصة). أما محاضر وقائع اجتماعات مجلس إدارة أمكومليب، فقد أظهرت أن أعضاء المجموعة كانوا ينظرون إلى "نصار" باعتباره محور استراتيجية البروباغندا "المغطاة" للمجموعة إلى درجة قولهم: "أنعم به من رجل صالح ... لله در منافعه فى مهام عديدة للجنة الأمريكية".

وأيا ما كانت ولاءات "الرجل"، وأيا ما كان مصيره ... فإن توظيف مؤتمر "باندونغ" للمسلمين السوفييت اللاجئين بميونيخ قد شكل انقلابا أمريكيا ... إلى حد التهلل والنشوة اللتين سادتا "البيت الأبيض". ففى اجتماع مجلس الوزراء الأمريكى فى التاسع والعشرين من نيسان/ أبريل ١٩٥٥، أورد وزير الخارجية "جون فوستر دالاس" أن الجميع، بادئ ذى بدء، قد ذهبوا إلى افتراض هيمنة الشيوعيين على مؤتمر "باندونغ"، إلا أن الأعمال بالخواتيم، إذ أتت الجهود الأمريكية أكلها، ودارت الدوائر فالأيام دول. هذا، وقد اعتبر "دالاس" عدم قيام رئيس وزراء الصين "شواين لاى" بأية محاولة للدفاع عن الاتحاد السوفييتى أثناء المؤتمر ... حدثا ذا دلالة - بالرغم من تعرض الاتحاد السوفييتى لنقد لاذع حاد بسبب "اتهامات" بالكولونيالية وجهت إليه.

ولم تكن الولايات المتحدة الوحيدة المدركة أهمية مؤتمر "باندونغ" ... إذ شهد المؤتمر معظم "اللاعبين" الرئيسيين فى ميونيخ، وتنوع الحضور فضم أطيافا شتى تراوحت ما بين المبرزين من جماعة "الإخوان المسلمين" إلى بعض عملاء الأجهزة الاستخباراتية من أمثال الروائى الأمريكى "أحمد كمال". أما "طاقم ميونيخ" فقد

شهد جميعهم المؤتمر باستثناء "غرهارد فون منده" الذى تغيب، لكن رجاله كانوا يوافونه من "باندونغ" بتحليلات مفصلة ضافية عن المؤتمر والمشاركين فى فعالياته. ورغما عن أن المؤتمر قد جاء بأكثر مما توقع "الغرب"، إلا أن "فون منده" كان يساوره قلق متنام ... إذ بدا أن الولايات المتحدة تسعى إلى انتهاك حرمة منظماته. فعلى سبيل المثال، شهد "روسى نصار" المؤتمر ممثلا للجنة الوحدة القومية التركستانية ... الأمر الذى جعل "فون منده" يرسل "ولى قيوم" إلى القنصلية الأمريكية بميونيخ لمعرفة السبب وراء قيام "نصار" بالزعم بتمثيله لجماعة "قيوم" ... "قيوم" الذى أخبر المسئولين الأمريكيين بالقنصلية أنه يعلم كون "نصار" مدرجا على كشوف رواتبهم و"عطاياهم". وقد بهت الأمريكيون لمعرفة "فون منده" بترتيباتهم المالية بشأن "نصار"، فعمدوا إلى مواجهة "فون منده" بالأمر فى مقابلة ضمتهم وإياه عقيب ذلك بأسابيع قلائل ... مواجهة كان فحواها كون "فون منده" قد ذكر أن "روسى نصار" قد كان فى مكة فى العام الفائت، حيث أرسله الأمريكيون إلى هناك، وأنه قد تلقى مبلغ ستمائة دولار أمريكى من ممثل وكالة الاستخبارات المركزية بالقنصلية الأمريكية فى جدة. وقد أورد الأمريكيون أن "فون منده" قد أخبرهم بذلك الأمر لأنه أدرك أن تأدية تلك المهمة على نحو أخرق أرعن ليتعارض مع مصالح الولايات المتحدة.

إلا أن الأرجح هو أن تأدية المهمة على هذا النحو أو ذاك لم تكن ليلقى "فون منده" لها بالا. فما أوغر صدره وأجج ضغينته هو "شخص" من تقوم الولايات المتحدة بتجنيده. وبدا فى الأفق أن الحليفين الغربيين كانا على وشك صدام ... صدام سيفتح الأبواب أمام "قوة ثالثة".